

تطور فن السير والتراجم في الأدب الجزائري

The evolution of the art of biographies and translations in Algerian literature

محمد فوزيل¹

جامعة يحيى فارس-المدية

mohafod14@gmail.com

محمد كوشنان

جامعة يحيى فارس -المدية

Kouchenane1980@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/03/31 القبول 2022/12/16 النشر على الخط 2023/01/15

Received 31/03/2022 Accepted 16/12/2022 Published online 15/01/2023

ملخص:

يعالج هذا البحث موضوع تطور فن السير والتراجم في الأدب الجزائري، والذي يُعدُّ فناً من الفنون الأدبية القديمة، إذ عرّفه الكتاب والأدباء العرب منذ زمن مبكر، وتطور عندهم مع مرور الأزمنة، بفضل اهتمامهم به، وتدوينهم فيه، وعنايتهم بشروطه وتفصيله، وسار على نهجهم الأدباء الجزائريون، منتجين في ذلك مدونات ذات أهمية بالغة في مجال البحث العلمي. ومن خلال هذه الدراسة سنسلط الضوء على مفهوم السير والتراجم، وأنواعها وأساليب تدوينها، وطرائق ترتيبها، وأهمية هذا الفن في الأدبين العربي والجزائري، وكذلك الغرض من التأليف فيه قديماً وحديثاً، فضلاً عن معرفة مكانة كتب السير والتراجم، وقيمتها العلمية والفنية بين المصادر الأدبية، وغيرها من منابع العلوم والمعارف.

الكلمات المفتاحية: تطور، السير والتراجم، الأدب العربي، الأدب الجزائري، الأهمية، المكانة.

Abstract:

This research deals with the issue of the development of the art of biographies and translations in Algerian literature, which is considered one of the ancient literary arts. Algerians, producing blogs of great importance in the field of scientific research.

Through this study, we will shed light on the concept of biographies and translations, their types and methods of codification, and the methods of their arrangement, and the importance of this art in Arabic and Algerian literature, as well as the purpose of authorship in it, ancient and modern, as well as knowing the status of biographies and translations, and their scientific and artistic value among literary sources and other literary sources. From the sources of science and knowledge.

Keywords: evolution, biographies and translations, Arabic literature, Algerian literature, importance, status.

مقدمة:

لو بحثنا في التراث الأدبي والثقافي الإنساني، نجد غنيًا بالفنون والعلوم، التي شاركت جميع الأمم العالم في ابتكارها، أو تطويرها، دون استثناء، لأن الحضارة ملك مشاع، وهي ليست حكراً على شعب دون غيره، ويحقّ له أن يأخذ منها ما يشاء، كما تحقّق له المساهمة فيها بإنتاج ما يراه مفيداً ونافعاً، هذا ما نلغيه خلال عملية استقصاء المسار الحضاري للبشرية، إذ تعلّمت الإنسانية فنّ الكتابة والتدوين، وأرست قواعد الحضارات على معالم التاريخ، وذلك بفضل جهود أبنائها البررة، المحبين لمساعدة إخوانهم في الإنسانية، وبعدها تشكلت الممالك والإمبراطوريات والجمهوريات، وتشعبت حاجيات شعوبها، وتعاونوا من أجل قضائها، واحتاجوا إلى ما يعينهم على تذكر ماضيهم الجميل، فكانت الفنون الأدبية عوناً في استدعاء الذكريات، واستحضار الصور، في المسامرات، والجلسات والسهرة، وسائر الاحتفاليات، فوظفوا فنّ الموسيقى لطرد الأحزان، وقترضوا القصائد في السلم والحرب، وقصّوا الأقاصي والأحاديث تسليّة وترفيهاً، وأخذوا للدروس والعبر.

ولما كان منجزو تلك الأحداث، والقائمون بتلك الأدوار من أهل الجاه والرّفعة والمكانة والشّهرة، تطلّب الأمر ابتكار فنّ يليق بمقامهم: يخلّد ذكركم، ويزيد في شهرتكم، ويقيّد آثارهم وأعمالهم، ويحفظ مناقبهم للأجيال المتعاقبة، لقد اهتدى العاملون في حقل الأدب، إلى فنّ السير والتّراجم، ليضطلع بدوره في هذا المجال، فكان عند حسن ظنّهم، إذ تسابق أدباؤنا القدامى إلى الاشتغال به، لأنّهم وجدوا فيه راحتهم، ومتنفسهم، فانطوا يدونون الأخبار، ويسردون الأحداث والوقائع، وينقلون السير، ويترجمون الأسامي المشهورة والمغمورة، بغية الاستفادة والإفادة، وتكريماً لمن ذكروا، واعترافاً لهم بالفضل والجميل.

فجاءت مصنفاتهم تعجّ بالقوائم الكثيرة، والتي تستعصي على العدّ والإحصاء، صُفِّتْ بها أسماء الملوك والأمراء والخلفاء، ورُتِّبَتْ فيها صفوف من ألقاب العلماء والأدباء، وطبقات الشعراء، ونُظِّمَتْ بها جحافل من رُتَبِ القادة، والفاخرين، والأبطال، والمقاومين، والشّهداء، وغيرهم ممن وهبوا أرواحهم، واسترخصوا أنفسهم ودماءهم، وأنفقوا أوقاتهم وأقواتهم، في سبيل أن تنعم أوطانهم بالحياة الكريمة، ولم يتقاعس في أداء ذلك لا الشّباب، ولا الرّجال، ولا حتّى النساء.

لقد ثَقَّفَ علماءنا ومؤرخونا وأدباؤنا مهمتهم ومسؤوليتهم، نحو أولئك الرّجال، والأعيان، والأعلام والعظماء، فراحوا يجمعون عنهم كلّ ذي صلة بهم من البيانات، وحرّروا كتباً تباينت أنواعها، بين التّراجم العامّة والخاصّة، والسير الذاتية والسير الغيريّة، في نصوص تراوحت بين الطّول والتّوسط، والقصر والإيجاز، بحسب الظّروف ومقامات الأحوال، حتّى جمعوا مدونات في السير والتّراجم، يحدوهم الإعجاب تارة، وحبّ السّبق والريادة تارة أخرى، والغيرة على دُرَرٍ وكُنُوزٍ أولئك المترجم لهم، وخشية من نسيانها، أو ضياعها. ومكتباتنا العربيّة تشهد لهم بذلك الفضل في التدوين، سواء في الأدب العربيّ، أو الأدب الجزائريّ، والإشكاليّة التي تفرض نفسها في هذا المقام، يمكن إجمالها في التساؤلات التّالية:

- ما مفهوم فنّ السير والتّراجم؟ ما هي أنواعه وأقسامه؟

- ما أهميته الأدبيّة؟ وقيّمته الفنيّة في الأدبي العربيّ والجزائريّ قديماً وحديثاً؟

- ما هو أسلوب تدوينه؟ وكيف تتم الكتابة فيه؟

- ما هي مكانته العلميّة في التراث العربيّ الإسلاميّ، والإرث الثقافيّ الجزائريّ؟

كلّ هذه الأسئلة وغيرها، تحاول هذه الدّراسة الإجابة عنها، من خلال هذه الورقة البحثيّة المقتضبة، باعتماد المنهج التاريخيّ الوصفيّ التحليليّ المساعد على الاستقصاء والاستنتاج، أملاً في الظّفر بجديد يستحق الإشادة والذكر.

1. مصطلح السيرة وأنواعها:

1.1. مفهوم السيرة:

يعرفها جبور عبد النور في معجمه بقوله: "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها، وأدت إلى ذيوع شهرته، وأهلته لأن يكون موضوع دراسة"¹. ويعرفها محمد التّونجي في مفاصله، بقوله: "السيرة مصطلح يدل على سيرة الحياة، أو ترجمة الحياة، وهي عبارة عن ترجمة حياة أحد الأعلام، وأهم السّير ((سيرة بن هشام))، وسيرة الملوك، وقد تكون ترجمة المؤلف نفسه، وهي في الأدب تدل على ((السلوك)) و((أسلوب حياة)) و((الترجمة))"².

أما صاحب كتاب الفنون الأدبية وأعلامها أنيس المقدسي، فيعرف السيرة، بقوله: "هو نوع من الأدب يجمع بين التحريّ التاريخي والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصية"³. ومما تجدر الإشارة إليه، هو أنّ فنّ السيرة ليس من مبتكرات عصرنا الحاضر، بل هو فنّ عريق في القدم⁴، فلقد عرفه العرب قديماً، واحتفوا به، منذ صدر الإسلام، وقبلوا عليه أيما إقبال، لما يحقّقه لهم من رغبات ذاتية ونفسية، حيث وجدوا فيه ضالّتهم، فترجموا للعديد من الشخصيات: كالأبطال، والفرسان، والعظماء، والقادة، والسادة، والملوك، والزعماء، والشعراء، وكان القصص الشعبيّ حاضراً، شحنت مادته بسير مشهورة منها، ((سيرة سيف بن ذي يزن))، و((سيرة الأميرة ذات الهمة))، و((سيرة الظاهر بيبرس)).

2.1. أنواع السيرة :

1.2.1. أنواع السيرة من حيث المضامين:

لقد خلف لنا أباؤنا في هذا النوع من الفنون الأدبية، وعلى توالي الأجيال عدداً وافراً من المؤلفات، جاء بعضها في مجلدات كبيرة، انقسمت تلك المؤلفات إلى نوعين في طريقة عرضها، من حيث المضمون، هما:

1.1.2.1. كتب السيرة العامة:

يتناول هذا النوع من كتب السيرة، أشخاصاً كثيرين: ككتاب الطبقات لابن سعيد (220هـ)، وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (256هـ)، ومعجم الأدباء لياقوت (626هـ)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (671هـ)، وأمثالها⁵.

2.1.2.1. كتب السيرة الخاصة:

يتناول هذا النوع من كتب السيرة شخصية واحدة، كالسيرة النبوية لابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق (152)، والإنصاف والتّحريّ لابن النّديم (660)،..... والصّبح المنبي للبديعي (1073)¹، وغيرها من التأليف، وما يُلفتُ النظر، هو تحوّل فنّ السيرة اليوم إلى فنّ أدبيّ من الأجناس الأدبية، التي تحكي حياة الأدباء والأعلام، وتروي نوعاً من القصص المعتمد على المذكرات².

1- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط2، كانون الثاني (يناير)، 1984م، ص143.

2- محمد التّونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1419هـ - 1999م، ج2، ص536.

3 - أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط6، نوفمبر 2000م، ص547.

4 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

5 - أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، المرجع نفسه، ص547.

2.2.1. أنواع السير من حيث العرض:

1.2.2.1. السيرة النبوية:

أن أول ما استعملت لفظة السيرة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.... وسمي المؤلفون فيها بأصحاب السير³، إذ "يعد ابن هشام (ت218هـ)، أول من دَوّن السيرة، واستمر الأدباء بعده يكتبون عنه، ويعرّفون الناس بسيرته كالقاضي عياض (ت544هـ)، والتلمسانيّ البرّي بكتابه ((الجوهرية)) (فرغ من تأليفه سنة644هـ)، والمقرزي (ت845هـ)، وغيرهم، كما ألف في سيرة النبي ﷺ المحدثون من الأدباء كالخضري، والعقاد، وبنيهم، والشرقاوي، وطه حسين"⁴.

ولما كانت السيرة النبوية، هي حياة الرسول ﷺ مستقاة من الكتاب والسنة، ومن أحاديث الصحابة والتابعين، ومتضمنة جوانب من أحداثه وفتوّته، وتلقيه الوحي، وقيامه بنشر رسالته وحروبه، وأقواله وأعماله وأخلاقه⁵، شكّلت مادة دسمة، وحقلًا خصبًا للتدوين والتحليل والدراسة، وأخذ العظات والعبر.

2.2.2.1. السيرة الذاتية:

يعرفها فيليب لوجون "Philip Lejeune"، بقوله: "نطلق السيرة الذاتية على الحكاية الاستدبارية التثريّة التي يُقَصُّ فيها أحدهم وجوده الخاص، عندما تنصبُّ عنايته على حياته الفردية خاصة، ولا سيما على تاريخ شخصيته"⁶، والكتابة عن الذات، لا تعني منح الكاتب الحرية المطلقة عند الحديث على تاريخه الخاص، والتحدث عن نفسه كيفما اتفق، بل لا بد أن يكون الكاتب لسيرته الذاتية موضوعيًا أيضًا في نظريته لنفسه، بمعنى أن يتجرد من التحيز لنفسه، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها، وحبّها لإعلاء شأنها، وتنقصها من أقدار الآخرين"⁷.

وبالعودة إلى أدبنا العربي من قديمه إلى حديثه، نلقي هذا اللون من السير حاضراً في رفوف مكتباتنا العربية: فمثلاً، نجد: ((كتاب الاعتبار)) لأسامة بن قنفل، "في هذا الكتاب، يقصّ علينا أسامة من أخباره الخاصة وما شهدته من حوادث ووقائع إبان العهد الصليبي"⁸، ونجد كذلك كتاب ((التعريف عن ابن خلدون))، وهو سيرة ذاتية، ذيل بها تاريخه المشهور، فحدثنا عن بيئته ونشأته ومشايخه، والذين خدمهم من ملوك زمانه، وعن رحلاته من تونس إلى الأندلس، ثم رجوعه إلى إفريقيا، وسفره بحراً إلى الإسكندرية، ثم إقامته في القاهرة"⁹.

1 - المرجع نفسه، ص5.

2 - محمد التونجي، المعجم المفصل، المرجع السابق، ج2، ص536.

3 - محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، دار المعارف، 1955م، ص27.

4 - المرجع السابق، ص538.

5 - جبور عبد التور، المعجم الأدبي، مرجع سابق، ص143.

6 - إيف ستالوني، الأجناس الأدبية، ترجمة: محمد الزكراوي، مراجعة: حسين حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2014م، صص212، 213.

7 - إحسان عباس، فنّ السيرة، دار صادر، بيروت-لبنان، دار الشرق، عمان-الأردن، ط1، 1996م، صص101، 102.

8 - أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها، ص555.

9 - المرجع نفسه، ص556.

أما في الزمن الحديث فسنجد الكثير من أدبائنا، ممن دونوا سيرهم الذاتية، ووسموها بمسميات مختلفة، على سبيل المثال نذكر، كتاب ((الأيام)) لطله حسين، ((زهرة العمر)) لتوفيق الحكيم، ((حياة قلم)) و((أنا)) لمصطفى محمود العقاد، ((حياتي)) لأحمد أمين، ((قصة حياة)) لإبراهيم عبد القادر المازني وغيرهم.

2. مصطلح التراجم وأنواعها وأقسامها:

1.2. مفهوم التراجم :

يعرفها محمد عبد الغني حسن في كتابه ((السير والتراجم))، بقوله: "التراجم هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر، تعريفًا يطول أو يقصر، ويتعمق أو يبدو على السطح، تبعاً لحالة العصر الذي كتبت فيه الترجمة، وتبعاً لثقافة المترجم - كاتب الترجمة - ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة، من مجموع المعارف والمعلومات التي تجمع لديه عن المترجم له"¹.

ويعرفها نواف نصار في معجمه الأدبي، بقوله: "بحث يقوم به كاتب عن شخصية مشهورة، فيعرض بالتفاصيل لحياته، وبيئته الخاصة والعامة، ودراسته وإنجازاته وآثاره ونواحي العظمة فيه، وعادة ما تكون مختلف المواد - صغرّت أم كبرت - المتعلقة بالشخصية المدروسة، مناسبة للرجوع إليها للإيفاء بالغرض، مثل كتابات المترجم له، ومذكراته ومفكرته اليومية ورسائله والأرشيف الرسمية، ومذكرات معاصريه، والمعلومات التي أدلى بها أصدقاؤه ومعارفه، وكذلك الصور والرسومات المتعلقة به"².

نكتشف من خلال التعريفين السابقين، بأن الترجمة فنّ من الفنون الأدبية، تُعنى بالبحث عن حياة الرجال المشهورين ومناقبتهم، ودراساتها دراسة مستفيضة، بالاعتماد على آثارهم، وكلّ ما له صلتهم في حياتهم، من أجل تخليدهم، ونشر سيرتهم بين العالمين، رغبة في الاقتداء بهم، والسير على نهجهم.

2.2. أنواع التراجم:

عند تصفح كتب التراجم، يلفي الدارس صنفين من التراجم المدونة، هما:

1.2.2. كتب التراجم العامة :

لقد اعتنى الإسلاف عناية فائقة "بهذا النوع من الأدب وحروا فيه شوطاً بعيداً، بدليل ما نراه في أدبنا القديم من وفرة الكتب المصنّفة في شتى أوجه الترجمة من تاريخية وأدبية ودينية وسواها"³، وقدّموا فيه جهداً لا ينكر، "واستمر هذا النوع من التأليف على نشاطه بسبب غيرة المسلمين على معرفة رجال الحديث ونقلته، ومن أبرز من عُرف بالإعلام، وتُرجم لهم أصحاب طبقات الصحابة كابن سعيد، وابن عبد البر، وابن الأثير، ومؤلفو تراجم الأدب لا يمكن إحصاؤهم كالثعالبي، والياخزعي، والأصفهاني وياقوت"⁴.

1 - محمد عبد الغني حسن، السير والتراجم، مرجع سابق، ص 09.

2 - نواف نصار، المعجم الأدبي، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2007م، ص ص 104، 103.

3 - أنيس المقدسي، الفنون وأعلامها، المرجع سابق، ص 548.

4 - محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، مرجع سابق، ج 02، ص 542.

2.2.2. كتب التراجم الذاتية :

هي التراجم التي كتبها أصحابها بأقلامهم، والتي تتولى "التعريف بذاتيته المؤلف أو شخص آخر، وهي التي تدعى بالأجنبي "بيوغرافية"، وهي وصف موجز أو مستطيل لسيرة الرجل، وقد درج الأقدمون من الأدباء والمؤلفين على ترجمتهم الذاتية، في جانب من كتبهم، وهي لون أدبي يُقبل عليه الناس لمعرفة حياة الآخرين"¹.

وإذا بحثنا في تراثنا العربي القديم، سنقف على نماذج كثيرة من التراجم الشخصية، "ومن أشهر من ترجموا لأنفسهم على هذا النحو محمد بن محمد الجزري المتوفى 833هـ/1429م، ومحمد عبد الرحمن السخاوي المتوفى 902هـ/1496م، والسيوطي المتوفى سنة 911هـ/1505م"²، أما في أدبنا الحديث فلقد "نهج المحدثون نهج قدمائنا في الترجمة لأنفسهم، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية، فكان القديم العربي والحديث الغربي باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم، ولعل من أهم من ترجموا لأنفسهم في القرن الماضي "علي مبارك"، فقد كتب في مؤلفه ((الخطط التوفيقية)) سيرته الذاتية"³، وغيره كثير جداً، أمثال: طه حسين في ((الأيام))، وأحمد أمين في ((حياتي))، والعقاد في ((أنا))، و((حياة قلم))... الخ.

2.3.2. أقسامها:

قسّمها مؤلفو كتب التراجم إلى تقسيمات عدّة، نذكر منها على سبيل القصر لا الحصر، ما يلي:

1.3.2. التراجم حسب الطبقات: مثل :

- طبقات الشعراء لابن المعتز (296هـ).
- طبقات فحول الشعراء لمحمد لابن سلام الجمحي (232هـ).
- طبقات النحويين واللغويين لابي بكر للزبيدي (379هـ).
- طبقات الأدباء لياقوت الحموي (626هـ).

2.3.2. تراجم بالاعتماد على الأسماء:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (681هـ).
- وفيات الوفيات لابن شاکر الكتبي (764هـ).
- الوافي بالوفيات للصفي (764هـ).

3.3.2. التراجم حسب القرون:

- الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثمانية لابن حجر العسقلاني (902هـ).
- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (1061هـ).

4.3.2. تراجم على السنوات :

- عيون التاريخ لابن شاکر الكتبي (764هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (1089هـ).

1 - المرجع نفسه، ص241.

2 - شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط4، 1987م، ص ص52، 53.

3 - المرجع نفسه، ص105.

5.3.2. التّراجم حسب البلدان:

—العقد الثّمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدّين الفاسي (832هـ).

—النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (874هـ).

6.3.2. تراجم النّساء:

—الدّر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب العاملي (1332هـ/1914م).

—أعلام النّساء لعمر رضا كحالة.

3. أهميّة السّير والتّراجم وأسلوب تدوينها ومكانتها في التّراث العربيّ ومصادره قديماً وحديثاً:

1.3. أهميّة تدوين السّير والتّراجم:

يطلعنا العلامة عبد الرحمن بن خلدون من خلال مقدمته، على أهميّة علم التّاريخ وفروعه، وضمّ إلى تلك الفروع فنّ السّير والتّراجم، مبيناً الفائدة منها بقوله: "اعلم أنّ التّاريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغايّة، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيّرتهم، والملوك في دولهم وسيّاستهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا..."¹.

وانطلاقاً من قول ابن خلدون، جاء تأكيد عُمر عبد الغفور أحمد القطّان على أهميّة السّير والتّراجم ودورها في حفظ الذاكرة الإنسانيّة، وذلك في قوله: "ومن هنا نقول بأنّ التّراجم والسّير هي أحد فروع علم التّاريخ، وتعدّ كتابة التّراجم والسّير من أهمّ حفظ الذاكرة الإنسانيّة، فعملها على تجميع أكبر قدر من المعلومات عن شخصيّة ما، وترصد دور تلك الشخصيّة وتأثيرها في مجتمع ما سياسيّة أو اجتماعيّة، أو اقتصاديّة، كما توفر صورة أقرب ما تكون لحقيقة الأحداث في الواقع عن ذلك المجتمع، والتي كلّ ما تعلق بحياة الشّخص بجميع تفاصيلها سواء أكانت في شؤونها الخاصّة أو العامّة، مهما بلغت تلك التفاصيل من خصوصيّة"².

إنّ كتابة السّير والتّراجم تتجلى في ذلك الأثر البليغ الذي تخلفه في تاريخ البلدان والعمران والعلوم، كلّ ما اتصل بشؤونها، إذ تحفظ تواريخ نشأتها، وأسماء مؤسسيها وسيّرتهم، وإنجازاتهم في هذا الميدان أو ذاك، وتخلّد ذكرهم على مدى الأجيال المتلاحقة، وهذا ما عُرِفَ عند القدماء من مؤرخي العرب، "لقد بلغت بهم العناية... في ذلك أن ألفوا كتباً في تواريخ البلدان، يؤرخون فيها لنشوتها، وعمرانها وتطوّرها، وفتحها وآثارها، ثمّ يفيضون بعد ذلك في التّراجم لأهل هذا البلد، فمن ولدوا فيه، أو نشأوا به، أو وفدوا عليه"³.

فكلّ ذو علم أو فنّ أو صنعة يبحث عما يشفي غليله في علمه وفنّه أو صنعتته، وكتب السّير والتّراجم تيسّر لكلّ واحد من أولئك رغبته وحاجته، يقول ابن الجوزي مبيناً أهميّة كتب السّير والتّراجم، ما يلي: "رأيت المحدثين، تختلف مقاصدهم، فمنهم من

1- عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وتخرّيج: عبد الله محمّد الدّويش، دار يعرب، ط01، 1425هـ - 2004م، ج01، ص92.

2- عمر عبد الغفور أحمد القطّان، كتابة التّراجم والسّير، إضاءات موصليّة، العدد79، صفر1435هـ/كانون الثّاني 2014م، ص02.

3- محمّد عبد الغنيّ حسن، السّير والتّراجم، مرجع سابق، ص05.

يقتصر على ذكر الابتداء، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء، وأهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء، والزهاد يحبون أحاديث الصلحاء، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء، ومعلوم أن الكلّ مطلوبٌ والمحدوف من ذلك مرغوبٌ¹.

ويقول عبد القدوس الأنصاري بشأن أهمية فنّ السّير والتّراجم ومزاياه ما يلي: "فنّ التّراجم مزايا عديدة، من أجلّها عنيّ به القدامى والمحدثون من البشر ذوي الحضارات العالميّة المختلفة... فكم من أسفار صغيرة وضخمة ألّفت في هذا الفنّ الحيويّ المُشرق بمختلف اللّغات، وبمختلف الميول والاتّجاهات والأهداف.... ومن مزايا هذا الفنّ، الاطلاع على حيوات رجال الدّين والعلم والأدب والسياسة والاجتماع والاقتصاد والاختراع، بعد بسط ما طوى من حياتهم الحافلة، لتكون عبرة ومثلاً، يحتذى لحياة العاملين والشّدّة والطّامحين"².

وسنكتفي في توضيحنا وبياننا لأهميّة تدوين السّير والتّراجم بقول أنيس المقدسيّ، والذي ينصف فيه كُتُب هذا الفنّ، مع تبين قيمتها وأهميتها في البحث العلميّ، إذ يعرب عن ذلك في قوله: "ومن الإنصاف أن نقول إنّه رغم ما يشوبها أحياناً من اختلاط الغثّ بالسّمين، نجد فيها معلومات قيمة، لا يستغني عنها باحث مستفيد"³.

إذاً حقيق بنا أن نقرّ بأنّ للسّير والتّراجم أهمية بليغة، ففضلها عظيم، لا ينكره إلّا جاحد، فهي بمثابة مستودع وبنك للمعلومات، لا يستغني عنه أيّ باحث في تاريخ العلوم .

2.3. أسلوب تدوين السّير والتّراجم:

لكتابة موضوع في السّير والتّراجم لعالم من الأعلام، أو شخصيّة من الشّخصيّات، يمكننا اتباع الأسلوب التّالي:

- أ- التعريف بالشّخصيّة: اسمه، كنيته، ونسبته، ومحلّ وتاريخ مولده.
- ب- التعريف بعصره وأهمّ الأحداث التي عاصرها سياسياً واجتماعياً.
- ت- دراسته العلميّة وأهمّ شيوخه وأهمّ تلامذته.
- ث- أقوال المعاصرين في تلك الشّخصيّة من علماء أو أدباء، وشخصيّات عاكة.
- ج- التعريف بدوره الذي لعبه في المجتمع سواء كان سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً.
- ح- مصنفاته وآثاره العلميّة والأدبيّة من مؤلفات كتباً أو مقالات مع إعطاء نماذج لها.
- خ- أولاده الذين تركهم من بعده ومحلّ وتاريخ وفاته.⁴

إنّ هذا الأسلوب يمكن اعتماده، مع إمكانية التّصرف في فقراته -زيادة أو حذفاً- بحسب توفر المادة العلميّة المعتمدة في البحث، أو مع إمكانية توافرها، فلا يُكتب شيء عن الشّخصيّة إلّا بدليل مقيد يحيل القارئ عليه، للتّثبت والتّأكد من صحة المعلومات من ناحية، ولتوثيق الأخبار والروايات المنقولة في التّرجمة أو السّيرة من ناحية أخرى، وكلّ ما خالف ذلك فهو مدعاة

1 - المرجع نفسه، ص22.

2 - عمّر عبد الجبار، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، الكتاب العربيّ السّعودي، جدّة، المملكة العربيّة السّعودية، ط03، 1403هـ - 1982م، ص 15.

3 - أنيس المقدسي، الفنون الأدبيّة وأعلامها، ص 548.

4 - عمر عبد الغفور أحمد القطان، كتابة التّراجم والسّير، مرجع سابق، ص04.

للشك والريب، يقلل من شأن البيانات المنقولة في الترجمة، ومنه الطعن في المترجم له، والمترجم، واتهام هذا الأخير، ووصفه بأوصاف ونعوت لا تليق بباحث.

3.3. مكانة السير والتراجم في التراث العربي ومصادره:

لقد عرفنا سابقاً أهمية فن السير والتراجم البليغة، والتي تجعله فناً متميزاً في حقل الفنون الأدبية الأخرى، بحكم موسوعيته وانفتاحه على كل الفنون الأدبية الأخرى والمجالات الحياتية، ومن ذلك يمكننا أن نكتشف الدور الذي يُنَاط بفن السير والتراجم، وحمله لمختلف البيانات والمعلومات المتصلة بالعلوم المتنوعة: الدينية، والأدبية، والاجتماعية والتاريخية والسياسية والثقافية، وغيرها. وكلها عناصر مشكّلة للحقل الثقافي، ورافد من روافده، وهذا يعني حضور كتب السير والتراجم، التي تهتم بهذا العلم أو ذاك، فهي مكانة عظيمة، لا يمكن لأي أحد تجاهلها، أو إغفالها، أو التقليل من شأنها. فعن مكانة كتب السير والتراجم في مجال الأدب، نقف مثلاً على كتاب أبي النصر العتيبي (427هـ) المسمى: "اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي"، بسط فيه سيرة السلطان سبكتكين، "ولقد كان لهذه السيرة للسلطان الغزنوي من القبول في البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها، كما صنع أحمد الميني الدمشقي المتوفى سنة 1172هـ، في كتابه المسمى ((الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتيبي))، وليس هذا هو الشرح الوحيد لهذه السيرة، فقد شرحها جماعة منهم الكرمائي، والخوارزمي، وابن محفوظ، وحמיד الدين"¹.

أما مكانة فن التراجم والسير في التشريع الإسلامي، يخبرنا عنها عمر عبد الجبار في مصنفه ((سير وتراجم))، بقوله: "إن فن التراجم قد حفظ لنا الكثير من مادة التشريع الإسلامي، بل عرفنا الصحيح من الضعيف، أو الموضوع من الأحاديث النبوية الشريفة، ولقد سارت تراجم الرجال الذين رواوا السنة، جنباً إلى جنب مع نفس متون الأحاديث، وإن معرفة الصحة والضعف، إنما تأتي غالباً من جهة السند لا من جهة المتن"².

ويختصر مكانة السير والتراجم العربية محمد عبد الغني حسن، في قوله: "والحق أن التراجم العربية الإسلامية قد فاقت - من حيث كثرتها وتنوعها وافتنائها في ترتيب الأعلام المترجمة، وافتنائها من حيث تبويب موضوعات التراجم والاهتمام بها، حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية... والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر، وضبط الأعلام، وتحقيق التشابه منها - قد فاقت غيرها من التراجم في الآداب الأخرى في القديم والحديث"³.

وبعد هذا التحوّل بحثاً عن مكانة كتب السير والتراجم، والوقوف على عينة من الأقوال المعترفة بفضل هذا الفن، ومكانته بين العلوم، نعزّد تلك الأقوال، ونؤكد في هذا المقام على المكانة المشرفة، التي يحظى بها فن السير والتراجم في تراثنا العربي ومصادره.

1 - محمد عبد الغني حسن، السير و التراجم، مرجع سابق، ص28.

2 - عمر عبد الجبار، سير وتراجم بعض علمائنا، مرجع سابق، ص295.

3 - محمد عبد الغني حسن، السير والتراجم، المرجع السابق، ص12.

4. حفظ فن السير والتراجم من كتابة المؤلفين والمؤرخين الجزائريين وقيمتهم عندهم ونماذج منه:

1.4. مكانة فن السير والتراجم في الأدب الجزائري القديم والحديث :

لم يشذ الكتاب الجزائريون (أدباء ومؤرخون)، لا في القديم، لا في الحديث، عن إخوانهم المؤلفين العرب في الاشتغال بفن السير والتراجم، والعناية به، ولم يكونوا بدعاً في مجال التأليف فيه، مستفيدين ممن سبقهم إليه من المهتمين، منتهجين نهجهم في التحرير، والوسيلة، والمقصد، ودونوا فيه مدونات، ومصنفات قيمة، على امتداد خط التاريخ، حتى اشتهرت بين الباحثين والدارسين، رصدوا فيها أخبار الشخصيات من الأعلام النابهين والمتميزين: كالأمرء والملوك، والسلاطين، والوزراء، والعلماء والأولياء الصالحين، والشعراء، والأدباء، والأئمة، والقادة من الفاتحين وخلفائهم، والشهداء والمجاهدين والدبلوماسيين، والزعماء والمفكرين، إذ تتبعوا فيها سيرهم ومسيرتهم، وقيدوا أقوالهم وأفعالهم، واحتفوا بهم الاحتفاء اللائق بهم، حتى صارت تلك المصنفات مورداً لاستقاء أخبار الداهيين، وقبلة للدارسين والباحثين، يستعينون بها على معرفة الماضي، واسترداد أحداث التاريخ، من أجل تفسير الظواهر الإنسانية، وإدراك أسرارها.

في التراث الجزائري القديم، دون ابن الصغير عن أئمة الدولة الرستمية (777م-909م)، وذلك في مدونته ((أخبار الأئمة الرستميين)) لابن الصغير (القرن الثالث الهجري)، وكتب ابن مریم الشريف المليتي التلمساني عن علماء وأولياء الدولة الزيانية (1235م-1556م) ((البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان))، وألف أبو القاسم الزيتي عن شرفاء المغرب، وأصول نسبهم الشريف، في كتابه ((تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب))، وغيرهم كثير، لا تسعنا هذه الورقات في حصرهم وعددهم، ووصف مؤلفاتهم.

والأمر عينه في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، إذ نلني اهتمام لفيف من الكتاب ممن أوقفوا أقلامهم ومخابرهم، على تدوين أخبار ذوي الدراية، والريادة والزعامة والقيادة، بحيث أنهم وجدوا في فن السير والتراجم مساحة، لبسط ما أمكنهم بسطه عن هذا العالم، وذلك القائد، أو تلك الشخصية، أو أولئك الرجال، والأبطال والشهداء، وغيرهم ممن تركوا بصمات، خلّدت آثارهم بعد رحيلهم، فعلى سبيل المثال، نجد العلامة أبا القاسم محمد الحفناوي، يعرّفنا بعلماء الجزائر، في كتابه الشهير ((تعريف الخلف برجال السلف))، وهو كتاب قيّم، لصاحبه الفضل في التعريف، والترجمة للكثير من أدباء وشعراء وفقهاء الجزائر، والصورة ذاتها نجدها عند عادل نويهض في ثنايا معجمه القيم المسمى بـ ((معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر))، فقد بذل فيه جهداً لا ينكر، من أجل الترجمة للكثير من أعلام الجزائر، إذ يعدّ كتاباً ومصدراً من مصادر فن السير والتراجم في الأدب الجزائري، قديمه وحديثه، كما نجد محمد بن رمضان شاوش، وزميله الغوثي بن حمدان، يقدمان كتابهما والمكون من أربعة أجزاء، والمعنون باسم ((إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر))، قدّما فيه عدداً لا بأس به من الأدباء والشعراء، فيه ترجمات تفاوتت في الحجم، بحسب ما توافر لديهما من معلومات تخصّ كل أديب من أدباء الجزائر، تمت ترجمته.

2.4. عينة من كتب السير والتراجم المصنفة في الأدب الجزائري (قديماً وحديثاً):

1.2.4. في القديم:

لاغرو أنّ التأليف في مجال السير والتراجم، كان كثيراً، نظراً لطول المدة الزمانية وامتدادها، والتي تبدأ من الفتح الإسلامي، حتى أواخر العهد العثماني في الجزائر، ودخول الاحتلال الفرنسي في العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، وسنكتفي بذكر عينة من تلك المؤلفات في المسرد التالي:

- أخبار الأئمة الرستميين: ابن الصغیر (القرن الثالث الهجري).
- كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا: أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر (ت 471هـ / 1078م).
- طبقات المشايخ بالمغرب (جزءان): أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت 670هـ / 1271م).
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: الإمام أحمد الغبريني (ت 1246م - 1304م).
- كتاب الوفيات: أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب الشهير ابن قنفذ القسنطيني (ت 1340م - 1406م).
- كتاب الوفيات: أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 834هـ - 914هـ / 1430م - 1509م).
- البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان: ابن مريم الشريف المليتي التلمساني (ت 1014هـ / 1605م).
- عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس: عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني (ت 11هـ / 17م).
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1584م - 1631م).
- دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران: محمد بن يوسف الزباني (ت 1902م).
- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر (جزءان): محمد باشا بن الأمير عبد القادر (ت 1840م - 1913م).

2.2.4. في الحديث والمعاصر:

- وكما سردنا عينة من المؤلفات التي اهتمت بترجمة الأعلام والأعيان، وذكر سيرهم وآثارهم ومناقبتهم، نسرد عينة أخرى، سارت على منوال وخطى سابقتها، وأثبتت حضورها في الحقل الأدبي الجزائري الحديث والمعاصر، إذ نعرض كشفاً عنها، فيما يلي:
- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر: عادل نويهض.
 - معجم أعلام الإباضية قسم المغرب (جزءان): محمد بن موسى بابا عمي (وآخرون).
 - موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين: رابح خدوسي.
 - الفرقد التائر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر: محفوظ السطايقي.
 - تكملة الوفيات (الوفيات ابن قنفذ الخطيب القسنطيني): أبو محمد سعيد هرماس.
 - طبقات المالكية الجزائريين خلال المائة الهجرية الأخيرة: أبو محمد سعيد هرماس.
 - من فضلاء منطقة الجلفة من 1861م إلى مطلع القرن الحادي والعشرين: أبو محمد سعيد هرماس.
 - الإعلام بأعلام الجزائر من كتاب الأعلام للزركلي (جمع وإعداد): عبد الغني عيساوي.
 - أعمدة الإصلاح في الجزائر (تقديم): عباي عبد القادر.
 - فهرست معلمة التراث الجزائري في القديم والجديد: بشير ضيف بن عمر الجزائري.
 - معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين: عبد الملك مرتاض.
 - معجم شعراء وادي سوف: سعيد بن البشير العمامرة، أحمد الطاهر منصوري.
 - من علماء الإصلاح في الجزائر: محمد الحسن فضلاء.
 - سير أعلام تلمسان: عبد الحق حميش.
 - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (جزءان): يحيى بوعزيز.

- أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر (104 أجزاء): محمد علي دبوز.
- أعلام و أبطال في آفاق الثقافة الجزائرية: محمد بن اسماعيلي.
- موسوعة تاريخ شعراء الجزائر صور للشعراء وبعض مخطوطاتهم: جمال بن عمار الأحمر.
- قطف الزهرات من أخبار علماء توات (جمعه): محمد عبد العزيز سيدي عمر.
- الكتاب الجزائريون (قاموس بيوغرافي): عاشور شرقي.
- الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن التلاني: محمد باي بلعالم القبلاوي.
- إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر: محمد باي بلعالم القبلاوي.
- الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار: محمد باي بلعالم القبلاوي.
- الأدباء الشهداء: مجموعة مؤلفين، صدر عن اتحاد الكتاب الجزائريين.
- تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن فرحون اليعمرى المالكي.
- إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر (أربعة أجزاء): محمد بن رمضان شاوش، الغوثي بن حمدان .
- شعراء الجزائر في العصر الحاضر (جزءان): محمد الهادي السنوسي.
- أبو حمو الزباني : عبد الحميد حاجيات.
- الشخصيات الجزائرية 100 شخصية: آسيا تميم.
- آثار ابن باديس: عمار طالبي.
- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (جمعها): أحمد طالب الإبراهيمي.
- مذكرات: الشيخ محمد خير الدين.
- شخصيات وأعلام في الذاكرة: عبد الحميد إبراهيم قادري.
- روعي لكم تراجم ومختارات من الشعر الجزائري الحديث: محمد الأخضر عبد القادر السائحي.
- أعلام المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بالقلم والسيف (1830م-1954م): بوعلام بسايح.
- الشيخ عبد الرحمن الأخضرى حياته وآثاره: عبد الحليم صيد.
- العلامة الموسوعي عبد الرحمن الأخضرى: فوزي مصمودي.
- معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين: عبد الكريم بوصفصاف وآخرون .
- معجم أعلام بسكرة: عبد الحميد صيد.
- سلسلة التوات في إبراز شخصيات من علماء وصالحى إقليم توات: التهامي بن محمد غتاوي.
- الفتح الميمون في تاريخ جواررة وعلماء تميمون إقليم توات ولاية إدرار: التهامي بن محمد غتاوي.
- القنديل العالي إضاءات من حياة الشيخ سيد عبد الكريم البلبالي (1288هـ-1375هـ): محمد فتاح.
- محمد العيد آل خليفة : صالح خري.

- الشاعر الأديب جلّول البدوي: محمد الأخضر عبد القادر السّائحي.
- شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة: أبو القاسم سعد الله.
- من أنا؟ محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه: تحقيق رابح بن خويا.
- آثار الأديب موسى الأحمد نويرات: نجيب بن خيرة.
- الشاعر جلّوح من التّمرّد إلى الانتحار: عبد الله ركيبي.
- العلماء الجزائريون في البلدان العربيّة الإسلاميّة فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ): عمار هلال.

5. التّأليف في أدب السّير والتّراجم عند الجزائريين: أسبابه و فوائده.

1.5. الأسباب والدّوافع:

إنّ أسباب ودوافع المؤلّفين والمؤرخين كثيرة ومختلفة من كاتب لآخر، منها: التّفسّية والاجتماعيّة والأخلاقيّة والسياسيّة والتّاريخيّة والفكريّة والإيديولوجيّة... إلخ، نمثل في هذه العجالة، لثلاثة أسباب، قصراً لا حصراً، كي لا يطول بنا المقام، ولا يتشعب الحديث، إذ نورد كما يلي :

1.1.5. السّبب الذاتيّ والدّافع التّفسّي:

في الغالب ما تكون الأسباب التّفسّية، من الدّوافع المباشرة والقويّة في إثارة مشاعر الكتاب، وتحريك عواطفهم نحو قضية، أو موضوع ما، فيطفقون إلى البحث عن مادته، وجمعها وتنسيقها، تحت وطأة الإعجاب والإكبار، أو وخزة البغض والاشتمزاز، يحذوهم الأمل في ذلك، البوح بما جادت به قرائحهم عليهم، فهذا هو —مثلاً— صالح الخرفي، يكشف لنا عن الأسباب والدّوافع التّفسّية الحقيقيّة، التي دفعته لكتابة ترجمة (الشّيخ محمد العيد آل خليفة) في مصنفه ((محمد العيد خليفة))، إذ يقول: "(محمد العيد) بالنّسبة لي، ليس الشّاعر فحسب، ولكنّه أبوة روحية لطفولة تفتحت في رحاب (باتنة) وفي (مدرسة التّربية والتعليم) بها،... وأبوة شعريّة، تنامت على صفحات الجرائد، وحلّقت على أجنحة القصائد، وتوثقت في لقاءات شخصيّة، ومراسلات أدبيّة، ومناجاة شعريّة، وتلك جميعها هي اليوم أعزّ ما يملك المرء من ذكريات الصّفاء في رحلة العمر"¹.

ويضيف الصّالح الخرفي مسترسلاً في سرد تلك الأسباب التّفسّية، بقوله: "كان (محمد العيد) بالنّسبة لي، ولم يزل، لحظات صفاء، ومحطات سكونية في رحلة الأيّام المطوَّحة مغرباً ومشرقاً، المضنيّة وحده واغتراباً، كان ولم يزل شعره، الأنيس والرّفيق، والمرشد والرّائد، والنّخوة والاعتزاز... كان العيد بالنّسبة لي، ولم يزل، هذه الصّورة التي خصني بها، والتي لا تفارق مكتبي، وأضعها —أخي القارئ— بين يديك، بما تحمل من نظرة تعزّ عليّ وعليك"².

1- صالح الخرفي، محمد العيد خليفة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1986م، ص13.

2 - المرجع نفسه، ص ص 13، 14.

وأخيراً يؤكد على وفائه للشيخ محمد العيد، تعبيراً على وثوق محبته به، وإحساسه الصادق نحوه، قائلاً: "وبعد، فإنني في هذه الصفحات لا أدرس محمد العيد، وإنما أحاول التعبير عن وفاء، واصل إحساساً، قاصر إبانة، والإحساس الصادق شفعي في الإبانة العائرة، عند الشاعر والقارئ معا"¹.

وهذا الدافع نلني كذلك عن نجيب بن خيرة وهو يحدثنا الدوافع النفسية في مقدمة كتابه المترجم لشخصية موسى الأحمدي نويرات، والموسوم بـ"الأديب موسى الأحمدي حياته وآثاره" يقول عنه: "أصبحت علاقتنا بالشيخ كعلاقة الوالد مع أولاده وأكباده ومنزع قلبه، يزورنا من غير موعد، ويقوم بيتنا أياماً، ويفرح به الأهل كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، يتحلقون حوله، يسمعون حكمه ونصائحه، ويستمتعون بلذيد طرفه وحكاياته وألغازه"². ويضيف في السياق ذاته قوله: "كان يراودني عزم الكتابة عن الأحمدي منذ عرفته، فأفضيت إليه يوماً بهذا العزم فسرّ بذلك، وأبدى معونته لي، في تقديم كل ما كتبت، وما كتبت عنه... فزادني عزماً قوّة، ومضيت غير هيّاب"³.

2.1.5. السبب الشخصي ودافع الواجب الوطني:

إنّ مسألة حبّ الوطن وخدمته بما أمكن في كلّ الأحوال والظروف، وفي كلّ موطن ومكان على الأرض، من شيم الوطنيين المخلصين الأوفياء، تجدهم يجتهدون في تقديم واجب العمل وهم بين أحضانهم، ويحتون إليه وهم في ديار الغربة حيث يسعون في رفع صوته، وتحسين صورته، من أجل تقدّمه، وتفوقه، هذه الأمور وغيرها دفعت عبد الحق حميش، وهو يعمل بإحدى جامعات المشرق العربي، إذ يصدم بحقيقة لم يقو على إخفائها، وباح بها في مقدمة كتابه، والمؤلف في سيرة علماء مدينة تلمسان، والمعنون بـ((سير أعلام تلمسان))، فيذكر للقارئ السبب والدافع المباشر لتحريره هذا المصنف، حيث يقول: "ولجت مكتبة الجامعة (جامعة الشارقة) التي أعمل بها في إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة، وطلبت من أمين المكتبة... سأله أن يسعني بأيّ كتاب متوفر عنده يتحدث عن تلمسان تاريخها وجغرافيتها وأعلامها، فأدخل كلمة تلمسان في جهاز الحاسوب الذي أمامه لعله يعثر على بعض المراجع.... لكنّ المفاجأة أنّه لم يجد أيّ كتاب يتحدث عن تلمسان بالرغم من أنّ المكتبة كبيرة ومحتوياتها تزيد على الستين ألف عنوان"⁴.

ويواصل عبد الحق حميش في شرحه خلفية ذلك السبب، قائلاً: "لعلّ هذا السبب من الأسباب دفعني لجمع مادة هذا الكتاب التي تبحث في أعلام مدينة تلمسان، المدينة الجزائرية العريقة، عاصمة الزنانيين، بلد العلم والثقافة، والحضارة، كي أسدّ بعض النقص الكبير الذي تشكو منه المكتبات العربية"⁵، ويضيف مؤكداً ومنبهاً على ثقل المسؤولية، وعظمتها الملقاة على عاتق النخبة الجزائرية المثقفة، كلّ واحد من زاوية تخصصه، وعلى ضرورة خدمة الوطن بما نملك من مواهب ومعارف، يقول في هذا الأمر: "إنّها مسؤولية عظيمة تقع على عاتق كلّ جزائري متخصص، يستطيع أن يخدم وطنه في هذا الميدان، وذلك

1 - المرجع نفسه، ص 14.

2 - نجيب بن خيرة، الأديب موسى الأحمدي نويرات، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي - الجزائر، طبعة خاصة، 2009م، ص 13، 12.

3 - المرجع نفسه، ص 13.

4 - عبد الحق حميش، سير أعلام تلمسان، دار التوفيقية للنشر والتوزيع، المسيلة - الجزائر، ط 1، 1432هـ - 2011م، ص 9، 8.

5 - المرجع نفسه، ص 09.

بالتأليف ولو بجهد قليل، ومشاركة رمزية يسهم بها في إثراء المكتبة العربية بمعلومات تهم هذا البلد الكبير بتاريخه ورجالاته وإسهاماته الحضارية والثقافية¹.

3.1.5. السبب الاجتماعي والدافع التاريخي الثقافي :

لا نستطيع أن نعدم في أي مجتمع ما، خصوصياته الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية، التي أنجزها أبنائه، وخلّفها رجاله وعظماءه، وهي ثرواته المعنوية، تضاف إلى ثرواته المادية، التي يفخر بها، لإثبات أصوله، وامتدادات جذوره العريقة، لماضيه السحيق، ويكنزها إرثاً مدخراً لأحفاده في الأزمنة اللاحقة، كي تتقوى به على الشدائد والأزمات وسائر المدلهمات، وهنا تتجلى قيمة الدافع السابق الذي يتحقق بفضل سواعد أولئك الكتاب المخلصين وإسهاماتهم، في توثيق كل شاردة وواردة، في الحقول المعرفية والعلمية والفكرية والثقافية، تصدر عن المبدعين العاملين في نفع أمتهم ومجتمعاتهم، وهاته الأخيرة بحاجة ماسة إلى حفظ ذاكرتها من النسيان، وصيانتها من التهميش والضياع.

من هذا المنطلق، تبلور الدافع الثقافي لدى الكتاب والمؤرخين، واستجابة لميولات مجتمعهم، وتحقيقاً لرغباته، وفي هذا السياق، نلفي الشيخ محمد باي بلعالم صاحب مدونة ((الرحلة العلية))، يطلعنا على السبب الاجتماعي والدافع التاريخي الثقافي، الذي كان مدعاة لتأليف رحلته، حيث يقول: "أن هذه الثروات التاريخية والعلمية والاجتماعية في حاجة أكيدة إلى أن يُجمع شملها ويُقرب بعيدا، وأن ينتظم عقدها ليطلع الأجيال الصاعدة على تاريخ أجدادهم وأمجادهم، والإطلاع على بعض الحضارات التي عاشها أسلافهم"².

لم يخف الشيخ محمد باي بلعالم عجزه عن الإحاطة بموضوع كتابه ((الرحلة العلية))، بسبب شساعة المنطقة المدروسة، وكثرة علمائها، وآثارهم، وتوزع شواهدا في مواطن مختلفة من البلاد الإسلامية، يُصرح بذلك في قوله: "قصدت مع ضعفي وتقصيري وقصوري تدوين بعض المعلومات التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بهذه المنطقة العربية الإسلامية الجزائرية، ولقد أنجبت هذه المنطقة مع بعدها وفقرها من لا يكاد يحصى من فطاحل الفقهاء، والمحدثين، وفحول الشعراء المجيدين، في عهد كان فيه الكثير من البلاد العربية الإسلامية يتردى في درك الانحطاط"³.

بعد فراغنا من ذكر الأسباب والدوافع، نستكشف أنّها دوافع وأسباب حقيقية وجادة، دفعت المتشغلين بفن السير والتراجم يولون عنايتهم واهتمامهم، بجمع المادة المعرفية، لأنّ الأمر يتعلق بالتاريخ وحقائقه، والتي لا تقبل الدس والطمس، ولا التزييف، وهي جزء لا يتجزأ من مكونات الهوية الوطنية، والحضارة الإنسانية، ولم يكن -بحسبهم تأكيداً- التأليف في مجال السير والتراجم سهلاً متاحاً، أو حقلاً مستباحاً، أو ظهراً يستطع أن ركه كل من شاء، بل الأمر في غاية الصعوبة لا يقدر عليه إلا الجادون والمتميزون، أصحاب النفس الطويل، المدركون لثقل المسؤولية وعظم الأمانة.

1 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

2 - محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش - الجزائر، 2015م، ص 54.

3 - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

6. فوائد فنّ السّير و التّراجم في الأدب الجزائريّ (القديم والحديث والمعاصر):

- لفن السّير والتّراجم في الأدب الجزائريّ قديمه وحديثه، فوائد جمّة، نجملها في النقاط التّالية:
- التّعريف على الكثير من الشّخصيّات في علوم وتخصّصات ومجالات مختلفة.
- الوقوف على أدوار الشّخصيّات السّياسيّة والاجتماعيّة والعلميّة... الخ وآثارها الماديّة والمعنويّة.
- بالبحث الجاد يتمّ تصحيح، أو إلغاء المعارف القبليّة عن الشّخصيّة المترجم لها، أو تثبيت تلك المعلومات وتأكيدّها.
- يكشف علم السّير والتّراجم عن حقيقة الأشخاص وأسرار البلدان ومختلف الآثار وخبايها.
- معرفة الرّواد والمبدعين في مجالهم، وتكريمهم بما يوازي أعمالهم.

7. نماذج من السّير والتّراجم مقتطفة من المؤلّفات الجزائريّة (القديمة والحديثة):

1.7. التّمودج الأول:

نورد في هذا التّمودج ترجمة أحد أعلام الجزائر من العصور المتقدمة، وردت في كتب التّراجم والسّير القديمة، تمثلت في شخصيّة والد أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله التّوجينيّ (ق11هـ/17م)، مؤلف كتاب ((عقّد الجُمَانِ النّفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس))، إذ يدّون لنا الابن "أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله"، ترجمة والده المسمى "عبد الله التّوجينيّ" ضمن صفحات الكتاب، نقلها نصّاً، كما وردت ها هنا:

" ترجمة والد المؤلّف :

صلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً، طيّباً مباركاً فيه، فهو أبو مؤلف الكتاب، هو عبد الله بن محمّد التّجانيّ النّسب، المقتدى به في الظّاهر والباطن، شدّت له الرّحال، وعظّمه الأكابر من الرّجال، ومناقبه جمّة، ذكرها في ((البيستان في ذكر الأعيان)) الشّيخ أبو محمّد عبد الله الونشريسيّ الزّرواليّ، وهذه أوصاف والد المؤلّف¹.

2.7. التّمودج الثاني:

نختار في هذا الموضع نموذجاً للاستشهاد به على التّرجمة العامّة والسّيرة الغيريّة القديمة، إذ يقع اختيارنا على ترجمة الأمير عبد القادر الجزائريّ، من كتاب ((الأدباء الشّهداء))، وهو لمجموعة من المؤلّفين، صدر عن اتحاد الكتّاب الجزائريين، وطُبع على نفقة منشورات المتحف الوطنيّ للمجاهد، كتب التّرجمة الأستاذ شريط أحمد شريط ضمن مقاله الموسوم بـ "الأدباء الشّهداء"، جاء نص التّرجمة، كما يلي:

"الأمير عبد القادر الجزائري (1807م - 1883م):

يعدّ الأمير عبد القادر من أبرز المثقّفين الجزائريين الذين ظهروا طوال القرن الماضي (1807-1883م)، وقد ورث عن والده مشيخة الطّريقة القادريّة سنة 1834م، كما يعد أهم شاعر جزائريّ طوال مدة تزيد عن قرن كامل، ولقد جمع إلى

1 - أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التّوجينيّ (ق11هـ، 17م)، عقّد الجُمَانِ النّفيس في ذكر الأعيان من أشرف غريس، دار الخليل القاسميّ للنشر والتّوزيع، يوسعادة - الجزائر، ط01، 2005م، ص ص 29، 30.

ثقافته الواسعة خبرة عسكرية عميقة قلما تتاح لغيره، إذ كان صاحب قلم أدبي، وصوفي، وعالم، كما كان رجل سيف شهد بخبرته الأعداء، والأصدقاء¹.

3.7. النموذج الثالث:

يقع اختيارنا على ترجمة وسيرة ذاتية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في مقطع من كتابه الصغير الحجم، لكنّه عظيم الفائدة، والقيمة، والنفع - بعون الله - والمعنون بـ ((من أنا؟ محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه)) حققه الدكتور رابح ين خويا، يحدثنا محمد البشير الإبراهيمي في سيرته، عن: اسمه، مولده، نشأته، وتعليمه، ورحلته إلى الشرق، وانتقاله إلى دمشق، ورجوعه إلى الجزائر، وتأسيسه للجمعية، وعمله بها، وكذلك بقية أعماله، ننقل هنا ما قال عن مولده:

"مولدي:

ولدت عند طلوع الشمس من يوم الخميس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف 1306 هجرية، الموافق للثالث عشر جوان سنة 1889 ميلادية، سمعت ذلك من عمّي الآتي ذكره وقرأته بخطّ جدي الأندى على ظهر كتاب من كتبه سجل فيه مواليد الأسرة ووفياتها، وفيها مواليد أخواتي اللاتي ولدن قبلي، ولم يعش لوالدي من الذكور غيري"².

خاتمة:

لا يسعنا في الختام إلا تقييد هذه النتائج الهامة، والمستخلصة من هذا العرض الذي حاول التعريف بفن السير والتراجم في الأدب العربي عموماً، وتطوره في الأدب الجزائري القديم والحديث والمعاصر خصوصاً، ثمّ البحث عن أنواعها، وقيمتها ومكانتها في مصادر التراث الأدبي والثقافي العربي، وكذلك أسلوب كتابتها، ودوافع التدوين فيها، نجمله في النقاط التالية:

- فنّ السير والتراجم نوع من الفنون الأدبية القديمة والمتطورة في الأدبين العربي والجزائري (قديمًا وحديثًا).
- اهتم الكتاب العرب والجزائريون بهذا الفنّ، وأولوه الاهتمام والعناية الفائقة.
- لفنّ السير والتراجم قيمة كبيرة في حفظ الذاكرة الجماعية وتراث الأمة على المستويين (المحلي والعربي الإسلامي).
- مكانة السير والتراجم مكانة عظيمة، تتجلى في الحضور الدائم في كلّ العلوم والتخصصات على امتداد التاريخ.
- كتب السير والتراجم ميدان خصب للبحث العلمي، ومستودع بنكي للمعلومات، لا يستغني عنه أي باحث.
- لتدوين السير والتراجم لابد من معرفة منهجية التدوين وأسلوب الكتابة، فضلاً عن توافر صفات الباحث الأمين.
- استفادة كتاب السيرة من موجات التجديد الكونية في الأدب، وتوظيف ذلك في مدوناتهم.
- للمؤلفين الجزائريين فضل لا يُنكر في إضافة نوع جديد، من أنواع السير والتراجم تمثل في: تراجم الأدباء الشهداء.

1- مجموعة من المؤلفين، الأدباء الشهداء، مرجع سابق، ص 99.

2 - محمد البشير الإبراهيمي، من أنا؟ محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه، تحقيق رابح ين خويا، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، 2018، ص 14.

المصادر:

• الكتب:

1. أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله التّوجيني (ق11هـ، 17م)، عَقْدُ الْجُمَانِ النَّفِيسِ فِي ذِكْرِ الْأَعْيَانِ مِنْ أَشْرَفِ غَرِيسٍ، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، يوسعادة- الجزائر، ط01، 2005م.
2. إحسان عباس، فنّ السيرة، دار صادر، بيروت - لبنان، دار الشرق، عمان-الأردن، ط01، 1996م.
3. أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط06، نوفمبر 2000م.
4. إيف ستالوني، الأجناس الأدبية، ترجمة: محمد الزكراوي، مراجعة: حسين حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط01، 2014م.
5. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت - بيروت، ط02، كانون الثاني (يناير) 1984م .
6. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط1987، 04م.
7. صالح الخزفي، محمد العيد خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
8. عبد الحق حميش، سير أعلام تلمسان، دار التوفيقية للنشر والتوزيع، المسيلة - الجزائر، ط01، 1432هـ - 2011م .
9. عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وتخريج: عبد الله محمد الدويش، دار يعرب، ط01، 1425هـ - 2004م .
10. عمر عبد الجبار، سير وتراجم علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة، الكتاب العربي السعودي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط03، 1403هـ - 1982م .
11. محمد البشير الإبراهيمي، من أنا؟ محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه، تحقيق رابح ين خويا، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، 2018م.
12. محمد التّوجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط02، 1419هـ - 1999م .
13. محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش -الجزائر، 2015م .
14. نجيب بن خيرة، الأديب موسى الأحمد نويرات، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي-الجزائر، طبعة خاصة، 2009م.
15. نواف نصّار، المعجم الأدبي دار ورد للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط2007، 01م .

• الدوريات :

16. عمر عبد الغفور أحمد القطان، كتابة التراجم والسير، إضاءات موصلية، العدد79، صفر1435هـ - كانون الثاني 2014م.